معادلة الجنوب والمقاومة من الإمام الصدر إلى ديغول

تريستان هليون لوني



كلّفت حكومة نواف سلام الجيشَ اللبناني بإعداد خطّة لمهمّة نزع سلاح حزب اللـه، في مهلـة زمنيـة، وتحديـداً حـتى 31 آب، الموعـد السَّـنويّ لانعقـاد المهرجانـات والاجتماعات والحشود الشعبية، إحياءً لذكرى تغييب الإمام موسـى الصـدر ورفيقيـه في ليبيا في العام 1978. إنّ الجدول الزمني الذي اختارته الحكومة لتكليف الجيش بهذه المهمّة المعقّدة يُعدّ بالغ الحساسيّة والخطورة، ويراه البعض رسالة مباشرة لا تخلو من الإهانـة والابـتزاز المتعمّـد. ولئن كـانت الحكومـة تسـعى إلى تعقيـد ملـفّ انسحاب المحتلّ وتسليم السـلاح النـاتج منـه، فمـا من وسـيلة أنجـع ممّـا اقترحتـه، وعلى ما يبدو بعفوية وارتجال.

هكذا، تبدو أولويّة القوى العظمى اليوم نزع سلاح المقاومة الإسـلامية وحلفائهـا في لبنان وفلسطين، بمختلف الوسائل الممكنة، في ظلّ ترسيمٍ جديد لمناطق سياسـية واقتصادية في الإقليم، تخضـع لهيمنـة العـرّاب الأمـيركي عـبر جنـوده الإسـرائيليين. وعلى الذكرى السنوية لتغييب السيد موسى الصدر، وفي لحظة يتعرّض فيهـا لبنـان لأحد أكبر التحدّيات في تاريخه المعاصر، تبدو الحاجـة إلى تأمّـلٍ تـاريخي مـوجز في مسـيرة الصـدر ضـرورية، لمـا لهـا من فائـدة محتملـة في قـراءة الحاضـر ورسـم الخيارات المقبلة.

رغم اختفائه، ظلّ الصدر رمزاً وطنياً لبنانياً يتجـاوز الطوائـف والمـذاهب والطبقـات الاجتماعية. فهو شخصية جامعة تركت آثاراً وبصماتٍ بارزة في تـاريخ لبنـان، ويُحكى عنها في الحاضـر، وسـيتحدّث عنهـا النـاس في المسـتقبل بلا شـكّ. لا يـزال الإمـام يشكّل جسراً بين الكبار والصِّغار، ويستلهم منه المسـؤولون، لا سـيّما حين يسـعون إلى تثبيت نيّاتهم وترسيخ شرعيّتهم، خصوصاً عند محاولـة بعضـهم طمأنـة الأوسـاط الشيعيّة المُستهدفة من قِبل الإدارة الأميركية والجبروت الإسرائيلي.

عند انتخابه من قِبل النوّاب اللبنانيين، وعلى رأسهم نوّاب الثنائي الشيعي والـرئيس نبيه بـرّي، في كـانون الثـاني الماضـي، اقتبس الـرئيس جـوزاف عـون قـولاً للإمـام الصدر: «أؤمن بما قاله الإمام الصدر، بأنّه لا يمكن أن يكون لبنـان مبتسـماً وجنوبـه متألّمٌ أو باكٍ». لكن، ما كانت رؤية الصدر حيال الجنوب، وما هي مسؤوليات الدولـة تجاهه؟ نتوقّف هنا عند بعض كلمات، هو قائلها، وعند مواقف بعينها أطلقهـا أو أيّـدها في ما يتعلّق بالجنوب، والجيش والشعب والمقاومة، بوصفه أحد روّاد هذه المعادلـة وأوّل مَن أسّس لها.

عند نهوض الثورة الفلسطينية في لبنان، وبعد نقل منظّمة التحرير قوّاتها إلى لبنـان في إثـر اتّفاقيـة القـاهرة وأيلـول الأسـود، طبّقت الحكومـات الإسـرائيلية المتتاليـة سياسة انتقامٍ جماعي في الجنوب بهدف كسر الدعم الشعبي الذي كـان الفـدائيّون يحظون به من طوائف الجنوب على اختلافها في بداية التمركـز الفلسـطيني. كـانت سياسةً إجرامية تشبه ما تقوم به إسرائيل اليوم في غـزّة والضـفّة الغربيـة وجنـوب لبنان واليمن.

لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ النقاش في «إسـتراتيجية دفاعيـة شـاملة» ليس جـدلاً جديداً في تاريخ لبنـان وخاصّـة في الحـديث عن الـدفاع عن الجنـوب. بالفعـل، بـادر الصدر إلى دراسة إستراتيجية عسكرية دفاعية تنفّـذها الحكومـة حقيقـة. اعتمـد في بداية المطاف على خطّة رسمها خبراء عسـكريون فرنسـيون في نهايـة السـتّينيات أُنجزتْ للمساعدة على تمكين الجيش اللبناني من السـيطرة على أراضـيه والـدفاع عنها رغم التفوّق التكنولوجي العسكري الإسرائيلي.

كانت هذه الخطّة تعتمـد على تـركيب صـواريخ ومدفعيـة بشـكل دفـاعي في وديـان الجنوب، بالإضافة إلى تحصـين بعض القـرى والمواقـع على الحافّـة الأماميـة، وعلى وجه الخصوص منصّات إطلاق صواريخ. ولكن سياسة الحكم في تلك المدّة، وخاصّة في عهد سليمان فرنجية، كانت تتعامل مع الأزمات المتتالية ومنها استباحة الجنوب، على قاعدة اللامبالاة. لم يستجب أحد في السلطة مـع هـذه المطـالب الـتي أيّـدتها شرائح وفئات واسعة من مشارب طائفية واجتماعية وسياسية متعـدّدة كـانت تـدور في فلك الإمام الصدر وخارجه.

على سبيل المثال، بعد الهجمات العنيفة التي شنّها الجيش الإسـرائيلي في 12 أيـار 1970، والـتي أدّت إلى نـزوح آلاف السـكّان من بنت جبيـل وعيـترون وكفـر شـوبا وكفر حمام وراشيّا الفخّار، ناشد الصـدر المسـؤولين والمجتمـع اللبنـاني في مقـال نُشر في جريدة «المحرّر» بتاريخ 22 أيّار 1970 قائلاً:

«الدَّولـة لم تتصـرَّف على أسـاس أنَّهـا مجتمـع حـرب... حتَّى ولا مجتمـع دفـاع، فالمجتمع اللبنانيّ بحاجة لأن يصبح مجتمع حرب لمواجهـة المعركـة المصـيريَّة الـتي يواجهها. على الأقلّ دعوا الجنوب الذي يواجه الحرب أن يكون هذا المجتمـع ليتمكَّن من مواجهة العدوّ على الوجه الذي تفرضه المصلحة القوميَّة وواقـع المعركـة... إنِّي منذ سنتين، وخلال اجتماعي بكبـار المسـؤولين، وأنـا أناشـد وأنـذر وأحـذِّر بمختلـف وسائل الإقناع... ولكن بعد أن لمست مؤخَّراً أنَّ الشَّعب اللبنـانيّ قـد بـدأ يتحسّـس ويتألّم ويدرك أبعاد الأخطار المحدقة به والمصير المظلم الذي ينتظـره.. بعـد ذلـك، لم أعد أرى أيّ مبرّر لاستمرار السُّلطة في سياسة الإهمال واللامبالاة».

إذا أُهمل أهل الجنوب والبقاع وتُركوا وحدهم أمام القتل والدمار والتهجير القسـري، فستظهر مقاومات جديدة، حتى لـو نُقلت المقاومـة الإسـلامية وغـير الإسـلامية إلى المرّيخ أو القمر

لم يدعُ الإمام الصدر إلى تسليح الجيش وتطوير معدّاته وتوسيع صفوفه فحسب، بل طالب الحكومة أن تكلّف هذا الجيش بالدفاع الفعلي عن الجنوب. ولم يكتفِ بـذلك، بل طلب تدريب السـكّان على حمـل السـلاح وتمكينهم من الـدفاع عن قـراهم إلى جانب الجيش، كما دعا إلى تحصين القرى الحدودية وفرض ضريبة تُخصّص لتعـويض سكّان الجنوب المتضرّرين. وقال أيضاً: «هذا على صعيد الجيش. وهناك كما ذكـرت تسـليح الشَّـعب وتدريبـه ليكـون القـوّة الـتي تسـاند القـوّة النظاميَّة وتسـاعدها في المعركة».

أي أنه طالب بتشكيل وحـدات قتاليـة شـعبية تسـاند الجيش النظـامي في التصـدّي للهجمات الإسرائيلية وتقاتـل تحت إمـرة الجيش، لأنـه كـان على يقين هـو وقيـادات صديقة في «الكتيبـة الطلّابيـة» في حركـة «فتح» أنّ تحريـر الأرض لا يمكن أن يتمّ بالوسائل العسكرية التقليدية، أي من دون اللّجوء إلى حـرب العصـابات، أو، بعبـارة أخـرى، إلى تشـكيلات مقاتلـة غـير نظاميـة تتمكّن من ضـرب المحتـلّ المتفـوّق تكنولوجياً.

من الطيبة إلى كفركلا مـروراً بكفـر شـوبا، تجـاهلت الدولـة مطـالب السـيد الصـدر واحتلال أراضيها في آنٍ معاً. وعندما لاحظ بمرارة أنّ الدولـة لم تكن معنيّـة بتحريـر الجنـوب وحمايتـه وسـكّانه، بـادر إلى تأسـيس مقاومـة وطنيـة لبنانيـة، واسـتند في

مشروعه هذا إلى الدكتور مصطفى شمران، الناشط السياسي الإيراني الـذي درس الفيزياء النووية في الولايات المتّحدة، والذي رافق الصدر حتى اختفائه.

والجدير بالذكر أنه في نضاله حصل على تأييد أوساط متنوّعـة: الأب يـواكيم مبـارك والمطران غريغوار حداد والشيخ أحمد الزين والزعيم معـروف سـعد، بالإضـافة إلى بعض أصدقائه من «فتح»، في «الكتيبة الطلابيـة» كمـا أسـلفنا، وفي «القـوة 17»، الذين درّبوا أولى خلايا «أفواج المقاومة اللبنانية» (أمل) التي أسّسها مـا بين 1973 و1975.

ختاماً، ولفتح النقاش على دوائر أوسع، لا بدّ من التذكير بملاحظات الجنرال ديغـول، مؤسّس فرنسا المعاصـرة، الـذي قـال بعـد احتلال القـدس وغـزة والضـفة الغربيـة والجولان وسيناء في العام 1967:

«إسرائيل هاجمت، وخلال قتال استغرق 6 أيّام، حقّقت الأهداف التي رســمتها. أمّـا الآن، تُدير إسرائيل الأراضي التي استولت عليها، بسياسة دأبت على ممارســتها من ظلم وقمع وترحيل. ثمّ تقوم في وجهها مقاومة يصفها المحتلّ بالإرهـاب». وأكمـل: «ولكنّ قاعدة الحلّ لهذه المشـكلة لا بـدَّ أن تبـدأ بانسـحاب إسـرائيل من الأراضـي التي احتلّتها، إلّا إذا مزّقت الأمم المتّحدة ميثاقها بنفسها».

لم يتصوّر الجنرال ديغول أنّ المجتمع الدُّولي سيرى بـأمّ العين تمزيـق ميثـاق الأمم المتحدة من قبل أحد مندوبيها في أثناء إحدى جلساته. لكنّ المجتمع الدُّولي وجميـع أعضاء الأمم المتّحدة لاحظـوا بدهشـة وإربـاك ممثِّل إسـرائيل جلعـاد أردان، عنـدما مزّق الميثاق بواسـطة ماكينـة أخـذها إلى منـبر الأمم المتّحـدة كمـا لـو أنّـه لم يكن شيئاً.

بهذه الطريقة، وضع بلاده خـارج الشـرائع الدُّوليـة بشـكل معلن ومسـرحي وبـذيء، علماً أنّ العرّاب الأميركي سيتغاضى عن مطالبته ومحاسبته كما يفعل منـذ تأسـيس هذه الدولة القائمة على التطهير العـرقي والفصـل العنصـري. فالسـؤال هنـا: كيـف يمكن الثقة بدولة تُعدّ نفسها فوق القوانين الدُّولية وبقيّة الشـعوب، ومـزّقت ميثـاق الأمم المتّحدة أمام جميع أعضائها؟ كيف يمكن لأحد أن يتصوّر أنـه سـيربح شـيئاً مـا بالاتّفاق معها؟

عبر هذه المراجعة التاريخية الصغيرة، من الإمام الصدر إلى ديغول، تأكّد لنا جليّاً أنّ حلّ مشكلة لبنان وفلسطين يبدأ بانسحاب المحتلّ، لا بنزع سلاح من يكافح المحتـلّ بالوسائل المتاحة أمامه. لو حُيّدت الفصائل المقاتلة عن مواجهـة الاحتلال، فستنشـأ مقاومة جديـدة عـاجلاً أم آجلاً، شـبيهة أو مختلفـة، لأنّ الاحتلال وعـدم محاكمـة مَن يرتكب جرائم حرب ومحاولة إبادة شعوب بأكملها – أي إفلات إسرائيل من العقــاب على جرائمها المتعدّدة والموثّقة – هما العنصران اللذان يخلقان المقاومة، والنضــال

المسلّح الذي يبقى الوسيلة الوحيدة أمـام شـعوب تركهـا المجتمـع الـدُّولي والـدول الكبرى والصغرى.

إذا أُهمل أهل الجنوب والبقاع وتُركوا وحدهم أمام القتل والدمار والتهجير القسـري، فستظهر مقاومات جديدة، حتى لـو نُقلت المقاومـة الإسـلامية وغـير الإسـلامية إلى المرّيخ أو القمر. فإذاً، لمن أراد إنهاء ظاهرة المقاومة في لبنان وفلسطين، فليعملْ على انسـحاب المحتـلّ أوّلاً، لأنـه يمثّـل بوّابـة الحـلّ الوحيـدة إذا أراد حقّـاً تلاشـي السلاح، وقيام السلام، وتثبيت الاستقرار.

إنّ الاحتلال والظُّلم المترتّبـان عنـه يؤدّيـان بالضـرورة إلى انتفاضـة النـاس، وإلى المقاومـة المباشـرة في نهايـة المطـاف، وهـذا أمـر مفـروغ منـه، تكـرّره التجـارب التاريخية المختلفة عـبر القـرون والقـارّات، من الجزائـر إلى فييتنـام مـروراً بـاليمن وأفغانستان. مهما كانت قوّة المهاجم، فإنّ المحتلّ يُضطرّ إلى الانسحاب، فهو بـاب الحلّ الوحيد. إنّ المقاومة ثمرة الاحتلال، فمَن أراد نزع الفاكهـة، فليقطـع الشـجرة التي أنبتتها.

* باحث فرنسي - الجامعة العليا للعلوم الاجتماعية في باريس